شعار العولمة... إلى أين ؟*

الدكتور محمد فاروق النبهان
مدير دار الحديث الحسنية

ظهرت لفظة "**العولمة**" كمصطلح جديد يعبر عن حاجة المجتمع الإنساني المعاصر في هذه القرية الكوكبية للتعاون والتكامل في القضايا التي ترتبط بها حياة هذا المجتمع وأمنه واستقراره وتطوره، سواء في المجال الاقتصادي الذي يعتبر الأساس في كل تنمية حقيقية أو في المجال السياسي الذي يحقق الأمن والاستقرار، أو في المجال العلمي والمعرفي والثقافي الذي يمهد الطريق أمام الإنسان لتقبل فكرة التعددية الثقافية المحكومة بضوابط التكامل الإنساني والتعاون في مجال المعرفة لتطوير قدرات الإنسان على مواجهة المشكلات المتولدة عن التخلف والفقر والجهل..

والأصل في "**العولمة**" أن يبحث المجتمع المعاصر عن الوسائل الممكنة لتعاونه وتكافله من خلال إيجاد الصيغة الملائمة والعادلة والممكنة لاستراتيجية شمولية، تكفل للشعوب والدول حقوقها في الاستفادة من التطور الإنساني في مجالات التكنولوجيا والاقتصاد والمعرفة العلمية..

"**والعولمة**" وفقا لهذا التصور التكافلي خطوة حضارية، لأنها نتاج وعي البشرية المعاصرة لأهمية اجتماعها على كلمة سواء في

* بحث مقدم إلى المؤتمر العاشر الذي نظمه المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة (2-5 يوليوز 1998 م).

قضاياها الأساسية،والنهوض بمستوى الشعوب المتخلفة التي تعاني من مشكلات وأزمات، والعاجزة عن مواجهة تحدياتها المتعلقة بالتنمية الاجتماعية والاقتصادية..

ولا يمكن للشعوب أن ترفض فكرة العولمة كاتجاه حضاري وكمنهجية للتعاون، وكوسيلة للنهوض، لأن الشعوب تدرك جيدا مصالحها وتحسن الدفاع عنها ولا يمكن أن ترفض أية منهجية سليمة للتكافل الإنساني، لأنها تجد فيها خلاصها وانتشالها من واقعها..

ونجد ملامح "العولمة" بهذا المفهوم الإنساني والأخلاقي في القيم الإسلامية التي تدعو إلى التكافل بين الإنسان وأخيه الإنسان، والتعاون على الخير وإلغاء كل مظاهر التمييز العنصري ومقاومة كل دعوة إلى إقليمية ضيقة متفوقة أو عصبية جاهلية، ويضع الإسلام معيارا واضحا للتميز والتفاضل يقوم على أساس العمل النافع، وفعل الخير، والتنافس فيه والتضامن بين الأغنياء والفقراء، والتعاون بين الشعوب والقوميات لكي تكون كلمة الله هي العليا، ولكي تنتصر قيم التناصر والتراحم بين الأقوياء والضعفاء، في ظل عقيدة متكاملة، ليست مطبوعة بأي طابع عنصري أو قومي أو طبقي، غايتها النهوض بمستوى العلاقات الإنسانية لكي تكون مبنية على قيم الفضيلة...

و"العولمة" التي نريدها هي عولمة التكامل والتناصر الإنساني، وليست عولمة التنافس والتناصر التي تغذيها المصالح الفردية للأقوياء، وتنميها روح السيطرة والعنصرية والاستعلاء، فهذه عولمة مذمومة، لأنها تؤدي إلى سيطرة القوي على الضعيف، وتكرس حالة الانقسام والتمزق بين الدول والشعوب، وتقود إلى حروب ونزاعات وصراعات بين الشمال والجنوب، وتزيد من حدة الفجوة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة، وتوجد الشعور النفسي بالاستعلاء والهيمنة، وتعطي للأقوياء من الدول والشعوب شرعية التدخل في شؤون الدول

المستضعفة، والوصاية على سياساتها الاقتصادية والإنمائية ومواقفها السياسية، وهذا المفهوم للعولمة لن تقبله الشعوب ولن ترتاح إليه، وسترفضه، لأنه يفقدها شعورها بالسيادة، ويجعلها في حالة من التبعية المذلة التي تتنافى مع حق الشعوب في الدفاع عن هويتها الثقافية واستقلالها السياسي...

إن شعار **"العولمة"** كما تؤكده السياسات المعلنة للدول المتقدمة يحمل في نفسه معاني ومضامين لا يمكن أن تكون مقبولة، وهو شعار يخفي تطلعالإحياء سياسات استعمارية اندثرت، وأصبحت متجاوزة، ولايمكن للشعوب أن تقبل بأية سياسة دولية لا توفر لها الكرامة والسيادة والعدالة...

إن عالمنا المعاصر ينظر لفكرة العولمة كشعار للسيطرة والتدخل ولهذا أخذت كثير من الدول تبحث عن هويتها الذاتية كوسيلة وقائية لمواجهة أخطار سياسات العولمة التي تريد أن تضعف خصوصيات الشعوب من خلال طرح مفاهيم ثقافية جديدة، في مجال القيم والسلوكيات، والإعلام الغربي المسيطر أخذ يدك المخادع المغلقة على مقدسات ثقافية، منددا بها مشككا بقيمتها، داعيا لرفضها والتمرد عليها...

والشعوب في دفاعها عن هويتها وكيانها أخذت تعبيء نفسها لمواجهة هذا الغزو المتجدد الجريئ، في الأفكار والقيم، أحيانا على شكل سلوكيات انعزالية أو على شكل انفعالات خاطئة مما أدى إلى تفاقم المشكلات الاجتماعية وزيادة حالات الضغط النفسي على الشعوب...

والإسلام لا يرفض مبدأ العولمة كشعار للتكافل والتقارب بين الأمم وإزالة أسباب التوتر بين المذاهب والأديان، وإيقاظ روح المحبة والتعاون للتخفيف من الآثار السلبية للتفاوت الاجتماعي بين الأفراد والشعوب، ولكنه يرفض أن تكون العولمة مطية لإلغاء الآخر، وأداة وسياسة لإفقار الشعوب وتكريس التخلف فيها.

والتعددية الثقافية في المجتمع الإنساني مظهر حضاري، ومؤشر واضح على عظمة قدرة الشعوب على إغناء التجربة الإنسانية بتصورات وأفكار وثقافات وقيم معبرة عن حاجة الإنسان للتميز والتنافس، للتعبير عن ذاتيته...

وهذه التعددية هي نتاج جهد عقلي واندفاعات غريزية وعاطفية لتعميق علاقة الإنسان مع الكون، من خلال تفاعل فطري يثري الحياة الإنسانية بثقافات متجددة وملائمة للزمان والمكان، ولا يمكن لأي دعوة للعولمة أن تلغي هذه الظاهرة الإنسانية، أو أن تهدد الهوية الثقافية للأمم فالتنوع حاجةفطرية وغريزية، وهو وسيلة للدفاع عن الذات وتحصين تلك الذات بمقومات التفرد والتميز...

ومن اليسير علينا أن ندرس مبدأ العولمة المطروح اليوم كشعار للمرحلة المقبلة من تاريخنا المعاصر كما يمكن أن يستنتج من السياسات الدولية المعاصرة :

أولا : التركيز على البعد الاقتصادي لمعنى العولمة، والمتمثل في اتفاقيات الجات، نظرا لأن الاقتصاد أصبح محور التطور الاجتماعي، والعامل الأهم في المواقف الدولية..

ثانيا : فرض نظام اقتصادي عالمي يعتمد على المنافسة الحرة في الإنتاج والتسويق والتجارة العالمية، وتخفيف دور الدولة في التدخل، لتخفيف الأعباء عنها...

ومن الطبيعي أن تؤدي هذه السياسة الاقتصادية إلى نتائج خطيرة أهمها :

أولا : إضعاف المؤسسات الإنتاجية في الدول النامية لعدم قدرتها التكنولوجية على المنافسة في مجال التجارة الدولية، وهذا سيؤدي إلى زيادة حدة البطالة

ثانيا : تكريس التخلف وإضعاف التنمية الاجتماعية في الدول النامية، وتشجيع ظاهرة هجرة الكفاءات والأدمغة ورؤوس الأموال إلى البلدان الملائمة...

ثالثا : زيادة أعباء هذه الدول من الناحية المادية، ورضوخها للسياسات النقدية الدولية التي تعطيها الحق في التدخل في كل المواقف والوصاية على السياسات...

ويجدر بنا أن نتأمل قليلا في مفهوم العولمة كاتجاه إنساني للتقارب والتعاون بين الشعوب، سواء على صعيد الرؤية الإنسانية لمشكلات الإنسان المعاصر، أو على صعيد التكاثف لمواجهة الأخطار التي تهدد البشرية.

وهذا المفهوم في رؤيته الموضوعية لا خلاف في قبوله والدعوة له، لأنه وسيلة عملية لإنهاء المشكلات التي تهدد الإنسان..

وهذا المفهوم يتطلب ما يلي :

أولا : الاعتراف القانوني والواقعي بحقوق الإنسان في أي مكان في العالم، والانتصار له، حماية لقيم إنسانية سامية، وتمكين الشعوب النامية من الدفاع عن مصالحها الحيوية، المادية والمعنوية، في ظل شرعية دولية لا سيطرة فيها لقوي على ضعيف، ولا هيمنة لشمال على جنوب...

ثانيا : احترام خصوصيات الشعوب الذاتية والحضارية والثقافية، واعتبار الدفاع عن الهوية من الحقوق الثابتة لكل شعب من الشعوب، والاعتراف بأهمية الثقافات الحضارية كوسيلة لتمكين الشعوب من التعبير عن خصوصياتها، اللغوية والثقافية وعقائدها الدينية وتقاليدها التراثية...

ثالثا : تمكين الشعوب من التكنولوجيا المعاصرة والمعرفة التقنية، باعتبارها تراثا إنسانيا أسهمت الحضارات المتعاقبة على امتداد التاريخ الإنساني في إغنائه والإضافة إليه، وإعطاء الفرصة للدول النامية أن تدخل ميدان المنافسة في مجال التنمية الصناعية والتجارة الدولية في ظل ظروف تشجيعية تراعي فيها الرغبة في مساعدة هذه الدول على الإقلاع والنهوض...

رابعا : تخفيف أعباء الديون على الدول النامية، من خلال استراتيجية للتعاون الدولي، وتشجيع هذه الدول على توسيع مجالات التشغيل، كسياسة وقائية للتخفيف من مظاهر الفقر والضغوط الاجتماعية.

خامسا : إعطاء مصداقية حقيقية للشرعية الدولية، وتمكين المنظمات الدولية من القيام بدورها لتحقيق السلم الاجتماعي بين الشعوب، عن طريق وضع آلية لتفعيل دور الشرعية الدولية بعيدا عن الضغوط وسياسات الوصايا والهيمنة...

والعولمة التي يريدها عالمنا المعاصر هي عولمة التكافل والتعاون، لا عولمة السيطرة والهيمنة وعندما تخفي الدعوة إلى العولمة في كيانها الرغبة في السيطرة والتدخل والوصاية ومقاومةكل فكر أوسياسة أو ثقافة وطنية فمن الطبيعي أن تكون هذه العولمة مرفوضة، لما تحمله في ثناياها من تهديد لمصالح الشعوب ومقومات الدول، وخصائص الحضارات، والإسلام دين فكر وثقافة، وله عقيدته المتميزة بخصوصياتها الإنسانية وقواعدها الأخلاقية وأحكامها التشريعية وتتميز هذه العقيدة بشمولية رؤيتها المرتبطة بمكانة الإنسان في الكون والحياة، وبنظرته إلى الإنسان كعبد لله مكلف بتكاليف شرعية، وأهمها أن يخضع لأحكام الله في سلوكه ومعاملاته، وأن يرفض كل مظاهر الانحراف في العقيدة أو السلوك، وألا يظلم ضعيفا، وأن يمد يده لمساعدة الفقراء والمستضعفين، وأن يرفض التمييز العنصري والطبقية المذمومة والقومية الضيقة وأن يعتمد في نظامه السياسي على قاعدة الشورى كأساس للحكم، والمساواة بين الناس في الحقوق والواجبات، ويرفض الإسلام كل الثقافات التي تتنكر للقيم الإنسانية، ولمبادئ العدالة ويدين كل أنوا ع العدوان ويعاقب عليه، ويبيح للشعوب المستضعفة والمستذلة والمعتدى عليها أن تدافع عن كيانها وحقوقها المشروعة...

هذه هي العولمة بمفهومها الإنساني، عولمة التناصر لمواجهة العدوان، وعولمة التعاون لمواجهة الفقر والمرض والجهل، وعولمة التشريع الذي يساوي بين المكلفين في نظر الشرع والقضاء، وعولمة الثقافة التي ترفض القوميات الضيقة والحدود المرسومة..

ومن اليسير علينا أن نتأمل في ثقافتنا الإسلامية، وسوف نجد فيها ملامح حضارية راقية، أسهم في صياغتها مفكرون ينتمون إلى مختلف الأمم والشعوب التي اختارت الإسلام، وحملت رايته، وأغنته بتراثها وفكرها وخصوصياتها، حتى أصبح تراث الإسلام ميراث شعوب ممتدة في معظم بقاع الأرض في آسيا وإفريقيا وأوروبا على امتداد القرون...

وإننا نريد العولمة التي تكرس الاستقرار الاجتماعي والسلام بين الشعوب والتي تخفف من التوترات الاجتماعية والضغوط الناتجة عن البطالة والآلام، وهذه العولمة تحتاج إلى نظرة أخلاقية لطبيعة العلاقات بين الشعوب والدول، بعيدة عن سياسة الوصاية والسيطرة فإذا كانت الدول المتقدمة تبيح لنفسها حق التدخل المشروع في أي مكان في العالم لحماية مصالحها الحيوية، فيجب أن تعترف هذه بحق الدول الأخرى في حماية مصالحها المشروعة واستقرارها الاجتماعي وحريتها في ممارسة سيادتها على أراضيها وقراراتها ونظامها ومواقفها..

وعندما يصبح مبدأ العولمة بالمفهوم الغربي أمرا مفروضا تجبر الشعوب على قبوله، فإن من الطبيعي أن يولد هذا الواقع شعورا بالضغط والقهر والإذلال، وهذا هو الطريق الحتمي الذي يقود إلى التوتر الاجتماعي، الذي يهدد الاستقرار والسلام...

ويجدر بنا أن نشيد بنظرة الأديان السماوية إلى وحدة الإنسانية، وخاطب القرآن الكريم الناس قاطبة في شرق وغرب

بخطاب واحد، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شعُوبا وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم ﴾ سورة الحجرات الآية 13.

والتعددية الحضارية أداة للتنافس وهي مظهر من مظاهر الوحدة الإنسانية في سعيها المتواصل لإغناء الفكر الإنساني بطاقات الشعوب وقدراتها وتجاربها، لكي تتواصل مسيرة الإنسان، في سعيه الدائم لإعمار هذا الكون وكشف أسرار هذه الأرض الغنية بقدراتها على العطاء والنماء. والتواصل بين الشعوب ظاهرة تاريخية، للدفاع عن قيم الفضيلة، قال تعالى : ﴿ الذينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ في الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وآتَوْا الزَّكَاةَ وأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ ونَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ ﴾ سورة الحج آية 41.

والحضارة الإسلامية حضارة إنسانية اشتملت على خصوصيات متميزة، كفلت لها البقاء والاستمرار والصمود، وستظل النموذج الأسمى لعولمة حقيقية، تتيح لكل شعب فرصة التعبير عن ذاتيته، لغة وتاريخا وانتماء، ويشارك بطريقة إيجابية في إثراء هذا الفكر الإنساني، الذي يحارب جميع أنواع العنصريات الضيقة، ولا يقيم أي وزن للانتماءات الجغرافية والقومية، وفي الوقت نفسه فإنه لا يضيق بهذه الانتماءات ولا يلغيها ولا يتجاهل ما تشتمل عليه من إيجابيات، ويجعل من هذه الخصوصيات أداة التنوع الثقافي، وينبوعها لإغناء الفكر الإسلامي بفاعليات وطاقات جديدة...

إن عولمة اليوم كما تبدو من ملامحها الظاهرة ليست سوى قناع جميل لاستراتيجية الغرب المعلنة في السيطرة على العالم، والتحكم في مسيرة الفكر الإنساني، بحيث يكون نسخة منسجمة مع النموذج الغربي، في رؤيته وفكره وقيمه، وعندئذ تنتفي أسباب التناقض والتنافر بين الرؤية الغربية والرؤية الحضارية للشعوب الأخرى، وعندئذ يكرس الغرب تفوقه الحضاري والمادي، ويحكم

سيطرته على مصير هذه الأرض وتخف حدة الصراع بين الشعوب والحضارات، وهذه الفرضية مناقضة لحتمية الصراع بين الحضارات، كوسيلة للتجديد المستمر في تاريخ الإنسانية...

وعالمنا المعاصر مدعو اليوم **لعولة المسؤولية الناتجة عن الكوارث الطبيعية والأزمات الناتجة عن التخلف الحضاري، وتعثر مخططات التنمية في البلاد المتخلفة،** والعالم كله مسؤول عن سوء التغذية في البلاد الفقيرة وانتشار الأمية في بلاد العالم، وعندما يتحمل الغرب الغني بثرواته ومعارفه وتقنياته وإمكاناته مسؤوليته الأخلاقية في دعم االشعوب الفقيرة وفي رفع الظلم عنها وفي التخفيف من آلامها وكوارثها فإن من الطبيعي أن تصبح العولمة بهذا المفهوم مرادفة لمعنى التكافل والتعاون، ولا يمكن لأحد أن يرفض اليد الممدودة لنصرته، فالشعوب تدرك بفطرتها النقية ملامح الصدق في الخطوات والسياسات والشعارات المطروحة، ويضيق صدرها بكل الشعارات والأفكار التي تسلبها حريتها أو تكبل أيديها بالأغلال..

ولا بد في النهاية من توليد ظروف نفسية للحوار الجاد بين الغرب وعالمنا الإسلامي، يقوم على أساس الفهم المتبادل الذي يعترف فيه الغرب بخصوصيات العالم الإسلامي ومصالحه الحيوية المشروعة، عندئذ يمكن للحوار أن يكون أداة للتعاون والتقارب في سبيل مستقبل أفضل..